منذ مئات السنين، والى الآن تموج الساحة الأدبية العربية بكثير من القصائد الشعرية التي صاغها أصحابها بناء على قصائد سابقة لها على سبيل المعارضة. مثل قصيدة أحمد شوقي التي بدأها بقوله:

ريم على القاع بين البان والعلم
أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

وقد عدت هذه القصيدة معارضة لقصيدة البوصيري الشهيرة التي يقول في أولها:

أمن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

وكذلك معارضة شوقي لسينية البحتري ونونية ابن زيدون، والأمثلة في ذلك كثيرة.

الشاعر الناقد د . وليد قصاب

وصفحات من سيرة عنترة

محيي الدين صالح - مصر

وهناك ظاهرة شعرية أخرى هي تسبيع أو تخميس القصائد الشهيرة، كما فعل الشاعر البيضاوي أيضا في بردة البوصيري حين أضاف خمسة مقاطع قبل كل بيت من البردة كقوله:

الله يحرس نفسي من عمايتها
لعل تحظى بخير في نهايتها
كم حملتني ذنوبا في بدايتها
وكم تروم مزيدا عن كفايتها
وليس تأمر خيرا في ولايتها

وبعد هذه المقاطع الخمسة، وضع البيضاوي بيت البوصيري الذي يقول فيه:

من لي بسرد جماح من غوايتها
كما يسرد جماح الخيل باللجم

وهناك ظواهر شعرية أخرى أقل شهرة تناول فيها اللاحقون من الشعراء بعض قصائد السابقين بالشرح والتحليل بأساليب شعرية متباينة.

والجديد الذي أتى به الشاعر الناقد د. وليد قصاب هو أنه سلك دربا لم يسلكه أحد قبله على ما نعلم. وهو يتناول سيرة شاعر جهير شهير وشخصية عربية عظيمة خلد نفسه بنفسه. وتحدى العبودية التي

وجد نفسه فيها فقهرها، وذاب وجدا في دروب العشق حين ذاقها، وبنى مجده بفروسيته عندما استُدعي لها، وحقق آمال قومه وكل من لجأ إليه واعتبرها غاية المكارم كما سعى لنيلها لنفسه سواء في سعيه للفكاك من العبودية أو في عشقه أو في فروسيته.

ولذلك فإن الدكتور وليد في ديوانه الموسوم (صفحات من سيرة عنترة) تتبع بعض المراحل البارزة لعنترة بن شداد العبسي الذي أرخ لحياته من خلال قصائده، واستطاع الدكتور وليد أن يسبر أغوار بعض أبيات عنترة، وأن يسافر عبرها ومن خلالها إلى أعماق الماضي السحيق ليغوص فيها إلى حيث تكمن الدرر الثمينة، إلا أنه لم يكتف باستخراج هذه الدرر وعرضها كما هي أو بقليل من التوضيح كما فعل كثير من النقاد، لكنه عرضها بأسلوب مبتكر في (فاترينة) أنيقة صاغها د. قصاب ليضع فيها مجوهرات العبسي، فأتقن إبداعها وتفنن في ربطها شكلا ومضمونا بالواقع والتاريخ في آن.

وإن كنت لا أدري بماذا نسمي هذا الأسلوب المبتكر الذي ليس بمعارضة ولا بتخميس أو تسبيع، إلا أنني لا أشك في أن الدكتور وليد بهذا العرض الجيد والأسلوب الجديد في تناول شعر السابقين يكون قد أصل أو مهد الدرب لمن يريد أن ينسج على هذا المنوال، وبذلك يكون له فضل الريادة والسبق، حيث لم يسبقه أحد في هذا اللون بهذه الطريقة.

وإذا كان د. وليد قصاب قد تناول أربعة جوانب فقط من حياة العبسي، هي (عنترة العبد - وعنترة العاشق - وعنترة الفارس - وعنترة الأمل) فإنه محق تماما في ذلك، لأن الجوانب الأخرى في حياة عنترة ليست ذات قيمة كبيرة ولا هي مونقة ولا هي مؤثرة في أدبيات هذا الشاعر المملاق، ثم إن أية جوانب أخرى في سيرة العبسي يمكن أن تحتويها هذه الصفحات التي جاءت مضمنة في الفصول الأربعة التي وضعها د. قصاب

إطارا عاما يدخل من خلالها إلى مكنونات عنترة أو يتداخل عبرها مع أبياته أخذا وعطاءً.

وديوان (صفحات من سيرة عنترة) يبدؤه الشاعر المبدع والناقد المتمكن د. وليد قصاب بسؤال مختصر وعميق ومحير، حيث يتساءل قائلا: لمن تُهدَى قصائد عنترة؟ وكأن الحالة التي وصل إليها الإنسان العربي لا علاقة لها بماضي أجداده الذين تحدوا القيود وعاشوا بوجداناتهم ولها، واشتهروا بالفروسية، وسعوا لتحقيق الآمال. ويبدو أن د. قصاب لم ينتظر ممن انقطعت صلتهم بالماضي العريق أية إجابة، فقد راح يصوغ الإجابة من تلقاء رؤاه وحسه المرهف ومنظوره الأدبي، ربما لأن مجريات الأمور في الساحة العربية وانبهار روادها بالآخر الخصم أوحت له بأن يتصدى للإجابة عن سؤاله، أو هكذا خطر في ذهنه.

والإجابة على هذا السؤال يستغرق من د. قصاب سبع قصائد متفاوتة الطول، جاءت متتالية في صدر الديوان قبل أن يبدأ في استعراض الصفحات التي اختارها للولوج من خلالها إلى الطرح الذي يريد أن يصل إليه.

ومن الجميل واللافت للنظر ذلك التوافق بين عدد الفصول التي حوت الصفحات التي استدعاها د.قصاب من سيرة عنترة العبسي وهي أربعة فصول، وبين عدد الفئات التي يخاطبها أو يرى د. وليد أنهم تُهدى إليهم قصائد عنترة. وهي أيضا أربع فئات.

الفئة الأولى هي فئة المغاوير الذين يقول عنهم:

للسائلين عن الشهامة والبطولة والجلال
وعن الكريم من الفعال
للباحثين عن الرجال
(القصيدة الأولى في الديوان)

ويضيف إليهم في القصيدة الثانية:

للواثبين إلى العلا
والثائرين على الخنا
للصابرين على الظما
ولمن سما

ونلاحظ أن هاتين القصيدتين تتوافقان مع المجموعة الثالثة من صفحات عنترة التي عنون لها الدكتور وليد (عنترة الفارس).

وأهل الفئة الثانية هم الذين قال عنهم (في القصيدة الثالثة):

للخارجين إلى ذرا التاريخ من قلب العدم
للخارجين
ولا فحولة من أب رفعتهم
أو حازها خال وعم

وهذه القصيدة تتوافق مع معطيات صفحات الفصل الأول أو المجموعة الأولى من صفحات عنترة والتي جاءت تحت عنوان (عنترة العبد).

الفئة الثالثة التي يرى د. وليد أنهم ينبغي أن تُهدى إليهم قصائد عنترة هم أهل العشق والهيام الذين يقول عنهم في القصيدة الرابعة:

للعاشقين نسائم الفجر المطهور
للنادمين يقودهم نور المحبة والحبور
للتائقين من الخنا
والثائرين على الفجور

ثم يقول عنهم أيضا في القصيدة السابعة:

للعاشقين
وعشقهم نهر الوفاء
ولكل حب أخضر
وسقته غيمات الصفاء
ولكل عبلة أخلصت
فتدفقت وجدا وجادت بالعطاء

وإن كنتُ أفضل أن تكون هذه القصيدة هي الخامسة في الترتيب حتى يتناسق العرض بالتوالي، ولكنها رؤية الدكتور وليد. وهو أدرى بمقصوده بهذا الترتيب.

ونأتي إلى الفئة الرابعة والأخيرة ممن يستحقون أن تُهدى إليهم قصائد عنترة. وهي فئة تحتاج إلى أن يُبث فيهم روح الأمل. وقد عبر عنهم الشاعر د. وليد بقوله في القصيدة الخامسة:

لليائسين اليائسين
ويحسبون الفجر ولى

لن يعوه

ثم يقول عنهم أيضا في القصيدة السادسة:

للساهرين

ويرقبون بلا كلال

مثلة البطل الهمام

يأتيهم من قلب قلب الليل

والوطن المشع بالظلام

معنى ذلك أن هذا الربط الدقيق بين المجموعات الأربع التي مثلت صفحات من سيرة عنترة وبين القصائد السبع التي جاءت ردا على التساؤل الماثل في أول الديوان هو رباط محوري أو نقطة ارتكاز في هذا الديوان، إضافة إلى أنه تعليل مقنع لما سنأتي من تفاصيل في الصفحات العشر من صفحات عنترة التي تمثل صلب الديوان.

أمر آخر جدير بالتوقف عنده ولو قليلا. وهو أنه في نهاية كل قصيدة وبعد توصيف هذه الفئة التي يرشحها د. وليد قصاب لتُهدى إليهم قصائد عنترة وذلك في قصائده السبع، يجعل آخر بيت في كل قصيدة:

تُهدى قصائد عنترة

لتضيء شمعتها النفوس المقفرة

أما القصيدة السابعة والأخيرة فيختتمها بقوله:

فلهؤلاء ولهؤلاء ولهؤلاء

تُهدى قصائد عنترة

لتضيء شمعتها النفوس المقفرة

وأرى أن الشاعر الناقد الدكتور وليد قصاب كان موفقا جدا في توزيع الصفحات العشر من سيرة عنترة حيث جعل صفحتين منها لكل فصل من الفصل الأول والفصل الأخير (عنترة العبد - عنترة الأمل)، في حين أنه أتى للفصلين الثاني والثالث اللذين يمثلان (عنترة العاشق - عنترة الفارس) وضمنهما ثلاث صفحات من سيرة عنترة في كل فصل، لأن حالة الفروسية التي تميز بها عنترة هي التي شجعته على التمرد على العبودية، وحالة العشق هي التي ألزمته واحة الأمل.

وهناك ملمح آخر من ملامح الريادة والتفرد والتميز في هذا الديوان، وهو أن الشاعر حينما يحتاج إلى تفسير ما في الهامش، فإن هذا الهامش يأتي به شعرا في الغالب الأعم من هوامشه ومن قصائد عنترة تحديدا، حتى يجعل المتلقي بكل أحاسيسه مع الشاعر العبسي ليقنعه أن قصائد عنترة تحتاج إلى نوعية معينة من المتلقين، حتى يؤكد ما ذهب إليه في بداية الديوان، عندما طرح سؤاله البليغ: (لمن تُهدى قصائد عنترة؟)، ثم أجاب عن التساؤل بسبع قصائد، كما سبق ذكره.

ونلاحظ هذا الملمح في الصفحات ذوات الأرقام: (٣٠، ٣١، ٣٥، ٣٧، ٥٣، ٧٤، ٧٥)، ولم يلجأ إلى الهامش المنثور إلا مرة واحدة في صفحة ٣٣ من الديوان.

وإذا أتينا إلى الصفحات التي تخيرها د. وليد والى الأبيات التي استقاها من قصائد عنترة التي تشي بسيرته ليبني عليها ديوانه ومساجلاته أو مداخلاته،

نجد أن هذا الاختيار يأتي أحيانا بشكل مباشر، كاختياره لبيت عنترة الذي يقول فيه:

المال مالكم والعبد عبدكم

فهل عذابك عني اليوم مصروف؟

أو:

فإن تسلك أمي غرابية

من أبناء حام بها عبتني

وأحيانا يأتي بالبيت المعبر بأسلوب غير مباشر، كاختياره قول عنترة:

هلا سألت ابنة العبسي ما حسبي

عند الطعان.....

والأبيات التي يصوغها د. وليد إلحاقا لهذه الأبيات أو تفسيرا أو تعليلا أو مشاركة وجدانية أو إعادة طرح لها بأسلوب عصري نجدها متلاحمة ومتجانسة معها وليست تدور في فلك آخر.

وبالنسبة للكلمات والألفاظ التي اختارها الشاعر لتحمل المضامين، فإن لها إيحاءات جانبية غير مقصودة لذاتها، ولكن لها علاقة غير مباشرة بحالة الشاعر د. وليد عند صياغته لقصائده.

فالفصول الأربعة التي وضع فيها الشاعر قصائده عبر الصفحات العشر، أظنها لها علاقة غير مباشرة أيضا بفصول السنة الأربعة.

فعندما يتحدث د. وليد عن عنترة العبد، نجد ألفاظه تتماثل مع معطيات فصل الخريف، مثل قوله في الصفحة الأولى من صفحات هذا الفصل (ص ٢٧):

وشمخت في وجه الرياح العاتيات

كصخرة شماء

أو أنا الثبت

وفي الفصل الثاني (عنترة العاشق) نجد المفردات التي تناسب فصل الصيف، مثل قوله في ص ٤٤:

فتوقدت في جانبي عزيمة منها اللظى يتلهب

وفي ص ٥٢ يقول:

أحبابهم في الليل أعداء إذا

دهمتهم شمس النهار الباهر

وإذا تحدث عن عنترة الفارس، فإن المفردات تأتي بشكل آخر، أرى أنها تناسب فصل الشتاء، مثل قوله في ص ٦٨:

فعطفت على عين الجميع غشاوة

حجبت لهم ضوء النهار

أما عندما يكون الحديث عن عنترة الأمل، فإن مفردات القصائد في هذا الفصل تكون متناسبة مع تحسن الأحوال بعد سوء، وهذه هي مفردات الربيع، يقول د. قصاب في ص ٩٤:

ومضت تعانق نوسها

تطوي صحائف دائها

وتلفعت ببرد الجلالة والبهاء

وزهت بأبواب الحياء

وبدون الدخول إلى تفاصيل قصائد د. وليد قصاب التي واكبت قصائد عنترة العبسي، التي استوحاها الأول من سيرة الثاني، فإن الديوان جدير بالتدارس من جوانب عديدة تحتاج إلى إفراد الصفحات الطوال التي تناسب مكانة عنترة الفارس العاشق، وقامة د.وليد قصاب الناقد الشاعر، وهذا أمر أرجو أن يتصدر له أهل الخبرة والاختصاص ■

أقوال عنترة

أحمد سويلم - مصر

- ما غيّر عنترة أقواله
ما بدل رحلته اليومية عبر صحارى الشعر
وعبر متاهات بني عبس والنعمان..
وعبر الصمت المتدثر في خيمة عبلة
وأعلى ظهر حشية أدهمه في الميدان..
- ما بدّل عنترة أقواله..
ما بدل لون الوجه الأزلي
ظل يبيت على جوع القلب
وجوع البطن..
ولم ينشر يوما ماء الوجه
ولا دمه في الطرقات
ولا رخص أضلعه تحت سيوف الزيف
ولم يتلثم بقناع يخفي عينيه
ويخفي جبن المستسلم للموت..
- ما بدّل عنترة أقواله..
فالخيل السابحة تحدث عنه ما زالت
فإذا طعن.. تجندل بين يديه القوم
وسربلهم بالدم..
وإذا طلم.. غدا ظلما في طعم العلقم
وإذا انطلق.. غدا صخرا في الساحات يدمدم
- ما بدّل عنترة أقواله..
لكنا بدلنا - نحن - الفارس
صار الفارس عصري العنتي.. والمبنى.. والوصف
صار الفارس وجها مجدورا بالكذب
وملتحفا بالزيف
صار الفارس.. من يهزم من الساحات
ويعلن في صلف معسول القول
من يؤمن أن مساواة الظالم هو العدل
وأن الذل أصيل في الإنسان
وأن الدنيا تجربة مرة..
لكنّ لن تغدو كمرارة علقم عنترة الفحل..
- ما بدّل عنترة أقواله..
لكنا بدلنا - نحن - الفارس
صار الفارس من يعلو فوق رقاب الناس
يرقص ساقيه - إلى آخر يوم من عمره
من يسرق.. ما دامت خطوته
ماضية في درب الظلمة
والبئر المملوءة لا تنفد..
من يصعد فوق الحيطان
في حنكة فأر أو ثعبان
من يقتل بالسم ولا يتذوقه في أطباقه
من يلبس أردية الطاعة
لكن يخفي أحقاد الدنيا في أحداقه
من يلوي عنق الحكمة
حتى تغدو طوقا في أعناقه
صار الفارس من ينفرس أعيننا ودخائلنا
ثم يهيل علينا ما يرضيه
وما يجعلنا مشدودين إلى أطواقه
- ما بدّل عنترة أقواله..
لكنا بدلنا - نحن - الفارس
حتى صرنا غرباء ومقهورين
وتوارت كل الأحلام إلى حين
وإلى ما بعد الحين..
وانغلقت طاقات النور وكممت الأفواه
فلا ندري ما كان.. وما سوف يكون..
وما عاد حديث الليل له في القلب شجون
وما عاد النهر المتدفق يشبعنا
فبأي الآلاء ترى نصدّق أو نكذب
وعنترة الفارس غاب
وما عاد بمهرك يا عبلة..
منذ غاب..
فبأي الآلاء وأي كتاب..
وما عاد يصدقنا أحد
منذ تخلى عنا الصدق.. وغاب
ما عاد يصدقنا أحد
ما عاد..!